إِشْكَالِيّةُ الاسْتِدْرَاك عَلَى الخَلِيلِ " بَحْر المُتَدَارَك "

The Problematic of rattraping EL KHALILE'S " MOUTADAREK" meter

بلال ولجة*

تاريخ تقديم البحث **2017/11/14** تاريخ القبول **2018/2/8**

ملخص

تَرَبَّعَ بَحْرُ المُتَدَارَك عَلَى عَرْش المُعْضلَات العَرُوضيّة لكَثْرَة الخلَاف الوَارد حَوْلَهُ قَديمًا وَحَديثًا منْ حَيْثُ نَسْبَتُهُ وَاسْمُهُ وَوَزْنُهُ؛ وَقَدْ أَشَرْنَا فِي هَذَا المَقَال إِلَى بَعْض الخلَاف الحَاصل فِي اسْمه ووَزْنه، ثُمَّ سَلَّطْنَا الضَّوْء حَوْلَ قَضيَّة النسْبَة مُنَاقشينَ مَسْأَلَةَ اسْتدْرَاك الأَخْفَش الأَوْسَط بَحْرَ المُتَدَارَك عَلَى شَيْخه وَاضع علْم العَرُوض الخَليل بْن احْمَدَ الفَرَاهيدي منْ خلَال تَتَبُّع آرَاء العَرُوضيّينَ المُتَقَدّمينَ وَالمُتَأَخرينَ، وَتَبَيَّنَ لَنَا أَنَّهُمْ انْقَسَمُوا ثَلَاثَةَ أَقْسَام؛ منْهُمْ منْ لَمْ يَذْكُرْ قَضيَّةَ الاسْتدْرَاك البَتَّةَ مُقرًّا أَنَّ بُحُورَ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ عنْدَ الخَليلِ خَمْسَةَ عَشَرَ بَحْرًا، وَمنْهُمْ منْ زَعَمَ أَنَّ الأَخْفَشَ الأَوْسَطَ زَادَ بحرًا شعْرِيًا اسْتدْرَكَهُ عَلَى الخَليلِ سَمَّاهُ المُتَدَارَكَ، وَمنْهُمْ منْ فَنَّدَ هَذَا الزَّعْمَ المَشْهُورَ مُثْبتًا أَنَّ الخَليلَ قَدْ عَلمَ بهَذَا البحرِ مُوردًا حُجَجًا عَضَدَ بهَا رَأْيَهُ؛ ثُمَّ خَتَمْنَا هَذَا المَقَالَ بنَتَائجَ عَدَدْنَاهَا أَقْرَبَ إِلَى الصَّوَاب، منْهَا أَنَّ الخَليلَ قَدْ عَلمَ بِبَحْرِ المُتَدَارَك لَكنَّهُ أَهْمَلَهُ لعَدَم جَرَيَانه عَلَى الأُصُولِ العَرُوضيَّة وَنُدْرَته فِي الشِّعْرِ العَرَبِي.

الكلمات الدالة: بحر، المتدارك، الأخفش، الخليل

Abstract

EL MOUTADAREK meter is one of the main in the metric problems, in this article I try to high light the issue of the proposition, discussing the question of the need to overcome the meter according to its stanza and his maker (name of one who named it) shading also what EL AKHFASH said and did about EL MOUTADAREK meter according to what did he has from his master EL FARAHIDI through the following of what other masters of EL ARODH said (pioneers or followers) it seemed that they were divided in to three classes: Some said that what we have in EL ARODH is just 15 meter (what EL KHALIL named), Some said that EL AKHFASH ALAWSAT added one meter called EL MOUTADAREK, Some said that EL KHALIL knew this meter and made a lot of arguments for this opinion .At the end of this article we got some information to in force the idea is that AL KHALIL knew about AL MOUTADAREK meter but he ignored it because it's so rare in the Arabic poetry.

Keyboard: metere lmoutadarek, elakhfash, elkhalil.

* قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة البليدة 2، الجزائر .

مقدمة:

مِنَ القَضَايا التي أثارتْ جدلاً و أَسالتْ حِبْرًا كثيرا في الدراسةِ العروضية والنقديةِ قَضِيَّةُ بَحْرِ المُتَدَارَكِ مِنْ حَيْثُ نِسْبَتُهُ واسْمُهُ والتَّغْيِرَاتُ المقْبُولَةُ الطارِئَةُ على وَزْنِهِ، وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِيهَا وَحُجَّةٌ هُوَ مُتَّبِعُهَا.

وَلَعَلَّنَا في هَذا المَقَالِ نُسْهِمُ في توْضِيْحِ قَضِيَّةِ نِسْبَةِ هَذا البَحْرِ مِنْ خِلاَلِ نَقْلِ الخِلافِ الحاصِلِ بينَ العروضيّينَ والنُّقَّادِ وبيانِ أَدِلَّةِ كُلِّ واحِدٍ وَمُنَاقَشَتِهَا، وَقَبْلَ أَنْ نَشْرَعَ في هَذا نَوَدُّ أَنْ نَذْكُرَ بإيجازٍ الخِلافَ الحاصِلَ في اسْمِه وَوَزْنِه.

أَوَّلًا: الخِلَافُ الحَاصِلُ فِي اسْمِ بَحْرِ المُتَدَارَكِ:

1- ذِكْرُ أَسْمَائِهِ:

مِنَ الإِشْكَالَاتِ التي تُورَدُ عَلَى هَذَا البَحْرِ وَتُمَيِّزُهُ عَنْ غَيْرِهِ مِنَ البُحُورِ اختلافُ العروضيينَ في اسمه، فتَعَدَّدَت بذلك أَسْمَاؤه، قال الفَيُومِيُّ شَارِحُ عَرُوضِ ابْنِ الحَاجِبِ: "اخْتُلِفَ فِي تَسْمِيَتِهِ على اثْنَيْ عَشَرَ اسْمًا، فَقِيلَ المُتَدَارَكُ والمُخْتَرِعُ وَالخَبَبُ وَرَكْضُ الخَيْلُ وَالشَّقِيقُ وَالغَرِيبُ وَالمُحْدَثُ وَالمُتَظَافِرُ والمُتَدَانِي والمُتَّسِقُ وَصَوْتُ النَاقُوسِ وقَطْرُ المِيزَابِ"[1].وَأَكْثَرُهَا اسْتِعْمَالاً ثَلَاثَة: المُتَدَارَكُ وَالخَبَبُ وَالمُحْدَثُ، ولعلّ سبب كَثْرَة أَسْمَائِهِ: "أن الخَليلَ لَمْ يُسَمِهِ كَما سَمَّى سَائِرَ الأَبْحُرِ، لِأَنَّهُ مُهْمَلٌ عِنْدَهُ فَسَمَّاهُ كُلُّ قَوْمٍ بِما وَقَعَ لَهُمْ "[2]، ولِكُلِ اسْمٍ وَجْهٌ جَعَلَهُ صَاحِبُهُ تُكْأَةً "يَعْضُدُ بِه رَأْيَهُ.

2- تَعْلِيلُ أَسْمَائِهِ:

مِنْ قَوْلِ إِنَّ الأَخْفَشَ قَد اسْتَدْرَكَهُ على الخَلِيلِ سُمِيَّ المُتَدَارَكَ، " وَيُسَمَى أَيْضًا المُحْدَثَ وَالمُخْتَرَعَ لإِحْدَاثِ وَضْعِهِ واخْتِرَاعِهِ، وبِالمُتَّسِقِ أَيْ المُنْتَظَمِ لِأَنَّ كُلًّا مِن أَجْزَائِهِ خَمْسَةُ أَحْرُفٍ وَبِالشَّقِيقِ لأَنَّهُ أَخُو المُتَقَارِبِ؛ إِذْ أَصْلُ كُلٍ مِنْهُمَا وَتِدٌ مَجْمُوعٌ وسَبَبٌ خَفِيفٌ، وبِالخَبَبِ... إِذا خُبِنَ فَقَطْ تَشْبِيهًا لَهُ بِالخَبَبِ الذّي هُوَ نَوْعٌ مِنَ السَيْرِ في السُرْعَةِ، ويُسَمَّى أَيْضًا بِرَكْضِ الخَيْلِ لِأَنَّهُ يُحَاكِي صَوْتَ وَقْعِ حَافِرِ الفَرَسِ على الأَرْضِ، وَمَضْرِبِ النَاقُوسِ لِأَنَّ الصَّوْتَ الحَاصِلَ بِهِ يُشْبِهُهُ إِذا خُبِنَ"[3].

ونَسَبَ نُورُ الدّينِ السَّالِمي العمَّانِي تَسْمِيَةَ الخَبَبِ إِلى الأَخْفَشِ الأَوْسَطِ وَعَلَّلَ ذُيُوعَهَا باسْتِعْمَاله –غَالِبًا- مَخْبُونًا فَقَالَ: " وَلَعَلَّ وَجْهَ الخُصُوصِيَّةِ فِي تَسْمِيَتِهِ الخَبَبَ لِحَالَةِ الخَبْنِ أَنَّهُ لَمْ يُسْتَعْمَلْ غَالِبًا إِلاَّ مَخْبُونًا فَسَمَاهُ الأَخْفَشُ بِذَلِكَ نَظَرًا إِلى حَالَتِهِ الغَالِبَة"[4].

" وَيَجُوزُ كَسْرُ الرَاءِ مِنَ المُتَدَراك، وَوَجْهُهُ أَنَّ هذا البَحْرَ تَدَراك المُتَقَارِبَ حَيْثُ خَرَجَ مِنْ تَقْدِيمِ سَبَبِهِ عَلى وَتِدِهِ"[5].

ثانيًا: الخِلَافُ الحَاصِلُ فِي وَزْنِ المُتَدَارَك:

1- بِنْيَةُ وَزْنِه:

المَشْهُورُ فِي كُتُبِ العَرُوضِ وَالنَّقْدِ المُتَقَدّمَةِ والمُتَأَخِرَةِ أنَّ بَحْرَ المُتَدَرَاك مِنَ البُحُورِ الصَافِيَّةِ تَتَكَرَرُ فِيه تَفْعِيلَةُ (فَاعِلُنْ) المُكَوَّنَةُ مِنْ سَبَبٍ خَفيفٍ فَوَتِدٍ مَجْمُوع ثَمَانِي[6] مَرَاتٍ أَي:

فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ

وتَعَدَدَتْ مَفَاتِيحُهُ تَبَعًا لِتَعَدُدِ أَسْمَائِهِ فَقيل:

حَرَكَاتُ المُحدثِ تَنْتَقِـــلُ فَعِلُنْ فَعِلُنْ فَعِلُنْ فَعِلُنْ

وَقِيلَ:

أَخْفَشٌ مُدْرِكٌ مَطْمَعًا نَائلُ فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلُ

وَقِيلَ:

خَبَبًا ذَهَبَتْ تَمْشِي الإِبِلُ فَعِلُنْ فَعِلُنْ فَعِلُنْ فَعِلُنْ

يُسْتَعْمَلُ المتدراكُ تَأَما أَيْ مُثَمَّنًا فِي الشِعْرِ القَدِيمِ، وأَجَازَ المُحْدَثُونَ اسْتِعْمَالَهُ مَجْزُوءًا أَيْ مُسَدَسًا[7].

2- جَوَازَاتُهُ :

حَدَّدَ الجَوْهَرِي التَّغَيُرَاتِ التي قَدْ تَطْرَأُ عَلَى تَفْعِيلَةِ (فَاعِلُنْ) المُكَوَّنَةِ لِبَحْرِ المتدارك فَقَالَ: "زِحَافُهُ أَرْبَعَةٌ: خَبْنٌ، قَطْعٌ، إِذَالَةٌ، تَرْفِيلٌ"[8] ثُمَّ ذَكَرَ بَعْدَ هَذا الإِجْمَالِ التَفْصِيلَ والتَمْثِيلَ، لَكِنَّ الظَّاهِرَ أَنَّ هَذِهِ التَغَيُرَاتِ كُلَّهَا عِلَلٌ مَا عَدَا الخَبْنَ فَهُوَ زِحَافٌ، وَلَعَلَّ سَبَبَ تَسْمِيَةِ الجَوْهَرِي إِيَاهَا زِحَافًا -وهي في اصْطِلَاحِ العَرُوضِيّينَ عِلَلٌ- عَدَمُ اقْتِصَارِهَا عَلَى العَرُوضِ وَالضَرْبِ، بَلْ أَجَازَ دُخُولَ هَذِهِ العِلَلِ عَلَى الحَشْوِ أيضا، قَالَ فِي عِلَّةِ القَطْعِ مَثَلًا: " ويَجُوزُ لِكُلِ جُزْءٍ مِنْهُ

القَطْعُ، فَيَبْقَى (فَاعِلْ) فَيُنْقَلُ إلى (فَعْلُنْ)"[9] فَهَذِهِ العِلَلُ تَجْرِي مَجْرَى الزُّحَافِ ولَهَا نَظَائِرٌ وَيُمْكِنُ بَيَانُ هَذه التَّغَيُرَاتِ على النَحو الأَتِي:

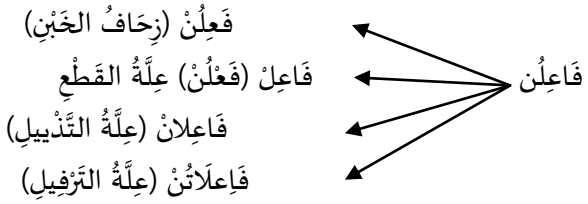

والجَدِيرُ بِالذّكْرِ هُنَا أَنَّ بَعْضَ العَرُوضِيّينَ سَمَّى مَا جَاءَ (فَاعِلُنْ) بالمتدراك وحَكَمَ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ شَاذٌّ مَهْجُورٌ، وَسَمَّى ما جاء على (فَعِلُنْ) بِالخَبَبِ، وَعَدَّهُ هُوَ الشَّائِعَ اليَوْمَ، وَسَمَّى ما جَاءَ مَخْبُونًا مُضْمَرًا (بِدَقّ النَّاقُوسِ) و (قَطْرِ المِيزَابِ)[10]، بَلْ إِنَّ بَعْضَهُمْ زَعَمَ أَنَّ أغلبَ شَوَاهِدِ المتدراكِ مَصْنُوعَةٌ، يقول الدكتور إبراهيم أنيس: " وأَوَلُ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَسْتَدْعِيَ الانْتِبَاهَ أَنَّ أَمْثِلَةَ هذا البَحْرِ وشَوَاهِدَهُ تَكَادُ تَكُونُ مُتَحَدِدَةً فِي كُلِّ كُتُبِ العَرُوضِ، وهي عبارةٌ عن أَبْيَاتٍ مُنْعَزِلَةٍ غَيْرِ مَنْسُوبَةٍ لِأَصْحَابِهَا تَبْدُو عَلَيْهَا الصَنْعَةُ والتَّكَلُفُ، فَإِذَا نَحْنُ بَحَثْنَا فِي كُتُبِ الأَدَبِ وَدَوَاوِينِ الشُعَرَاءِ عَنْ أَمْثِلَة أُخْرَى لا نَكَادُ نَظْفَرُ بِشَيْءٍ"[11]

وَإِذَا تَصَفَحْنَا كِتَابَ مِنْهَاجُ **البُلَغَاءِ وسِرَاجُ الأُدَبَاء** فَإِنَّنَا نَجِدُ صَاحِبَهُ قَدْ جَعَلَ لَلْخَبَبِ وَزْنًا مُخْتَلِفًا، شَطْرُهُ: مُتَفَاعِلَتُنْ مُتَفَاعِلَتُنْ[12]، وَهذه التَفعِيلَةُ تَتَكَوَنُ مِنْ سَبَبً ثَقِيلٍ وَوَتِدَيْنِ مَفْرُوقٌ فَمَجْمُوعٌ، وَسَيَأْتِي مَعَنَا مُنَاقَشَةُ رَأْيِ "حازِمٍ".

وَيَبْدُو أَنَّ مِنَ العَرُوضِيّنَ مَنْ تَوَسَّعَ فِي جَوَازَاتِ هذا البَحْرِ فَأَجَازَ (القَبْضَ) فِي تَفْعِيلَةِ (فَاعِلُنْ) فَتَصِيرُ (فَاعِلُ)، ومَعْلُومٌ أَنَّ (القَبْضَ) زِحَافٌ لَا يَلْحَقُ سِوَى ثَوَانِي الأَسْبَابِ، فَبَقِيَ بِذَلِكَ الجِدَالُ مُحْتَدمًا بَيْنَ العَرُوضِيّين حَوْلَ جَوَازَاتِ هَذَا البَحْرِ، وَلَعَلَّ الذّي أَلْجَأَ العَرُوضِيّينَ لِهَذَا الخِلَافِ هُوَ الاسْتِعْمَالُ وَالوَاقِعُ الشِعْرِيُّ الذِي يُخَالِفُ أَحْيَانًا المِعْيَارَ النَّظَرِيَّ.

ثَّالثا: إِشْكَالِيَّةُ اسْتِدْرَاكِ الأَخْفَشِ الأَوْسَطِ عَلَى الخَلِيلِ بَحْرَ المُتَدَارَكِ:

مِنْ أَكْبَرِ المُشْكِلَاتِ تَعْقِيدًا فِي الدِّرَاسَةِ العَرُوضِيَّةِ مُشْكِلَةُ نِسْبَةِ بَحْرِ المُتَدَارَكِ التِي شَغَلَتِ العَرُوضِيّينَ قَدِيمًا وحَدِيثًا، فَرُغْمَ إِجْمَاعِهِمْ أَنَّ وَاضِعَ عِلْمِ العَرُوضِ هُوَ الخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ إِلَّا أَنَّهُمْ يَتَأَسَفُونَ عَلَى ضَيَاعِ كِتَابِهِ فِي عِلْمِ العَرُوضِ الذّي لَمْ يَصِلْنَا كَمَا كَتَبَهُ وَأَمْلَاهُ، وَلَكِن الذّي وَصَلَنَا هُوَ كُتُبُ العَرُوضِيّينَ مِنْ بَعْدِهِ بَعْدَ أَنِ اسْتَقَرَّ لَهُمْ قَرَارُهُ فَصَاغُوهُ على غَيْرِ

صِيَاغَةِ الخَلِيلِ "[13] وَلَعَلَّ هذا هو السَبَبُ الرَّئِيسُ الذّي وَسَّعَ دَائِرَةَ الخِلَافِ وَأَوْقَعَ العَرُوضِيّينَ في الجَدَلِ.

والسُؤَالُ الذّي يَعِنُّ لَنَا أَنْ نَطْرَحَهُ هاهنا هُوَ: هَلِ اسْتَدْرَكَ الأَخْفَشُ الأَوْسَطُ عَلَى الخَلِيلِ بَحْرَ المُتَدَارَكِ؟.

انْقَسَمَ العَرُوضِيُّونَ فِي هَذِهِ المَسْأَلَةِ ثَلَاثَةَ مَذَاهِبَ، فَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَذْكُرْ هَذِهِ المَسْأَلَةَ البَتَّةَ فَكَانَ مَوْقِفُهُ مُحَايِدًا، ومِنْهُمْ مَنْ زَعَمَ أَنَّ الخَلِيلَ لَمْ يَذْكُرْ بَحْرَ المُتَدَارَكِ بَلْ تَدَارَكَهُ عَلَيْهِ تِلْمِيذُهُ الأَخْفَشُ الأَوْسَطُ سَعِيدُ بْنُ مُسْعَدَةَ (ت215 ه)، ومِنْهُمْ مَنْ فَنَّدَ هَذَا الزَعْمَ وَعَدَّهُ خَطَأً، وَلِكُلٍ حُجَجٌ جَعَلَهَا تُكَأَةً يَعْضُدُ بِهَا مَذْهَبَهُ، وَسنَعْرِضُ هَذِهِ الآرَاءَ وَنُنَاقِشُهَا عَسَى أَنْ تَظْهَرَ لَنَا الحَقِيقَةُ.

1- العَرُوضِيّونَ المُحَايِدُونَ فِي قَضِيّةِ نِسْبَةِ المُتَدَارَك:

مِنَ العَرُوضِيّينَ الذّينَ لَمْ يَتَطَرَّقُوا إِلَى قَضِيَّةِ نِسْبَةِ بَحْرِ المُتَدَارَكِ الجَوْهَرِيُّ صَاحِبُ (عَرُوضِ الوَرَقَةِ) حَيْثُ يَقُولُ: "وَكَانَ الخَلِيلُ –رَحِمَهُ اللهُ- يَعُدُّ العَرُوضَ خَمْسَةَ عَشَرَ بَابًا، وَلَا يُعَدُّ المُتَدَارَكُ مِنْهَا"[14] فَالجَوْهَرِيُّ أَقَرَّ بِأَنَّ الخَلِيلَ لَمْ يَذْكُرِ المُتَدَارَكَ وَفِي الوَقْتِ نَفْسِهِ ضَرَبَ صَفْحًا عَنْ ذِكْرِ وَاضِعِهِ لِذَلِكَ نَجِدُهُ يُغْفِلُ نِسْبَةَ البَحْرِ حَتَّى فِي بَابِ المُتَدَارَكِ الذّي أَطْنَبَ فِيهِ الحَدِيثَ وَقَالَ عَنْهُ: "وَذَا مُحْدَثٌ، وَالخَلِيلُ لَمْ يَعُدَّ المُتَدَارِكَ فِي البُحُورِ"[15]، وَذَهَبَ الزَّمَخْشَرِيُّ مَذْهَبَ الجَوْهَرِيّ فَلَمْ يَتَطَرَّق إِلَى مَسْأَلَةِ النِّسْبَةِ، بَلْ جَعَلَ "الرَكْضَ" عُنْوَانًا لِهَذَا البَحْرِ وَقَالَ: "يُسَمَى المُحْدثَ أَيْضًا"[16] وَلَسْتُ أَدْرِي لِمَ لَمْ يُشِرْ هَذَانِ العَرُوضِيَّانِ إِلَى الأَخْفَشِ الأَوْسَطِ أَوْ إِلى غَيْرِهِ؟، وَإِذَا أَمْعَنَّا النَّظَرَ فِي كِتَابِ (العُمْدَةِ) لابْنِ رَشِيقَ وَجَدْنَاهُ أَيْضًا غَيْرَ مُصَرِحٍ بِنِسْبَةِ هَذَا البَحْرِ مُعْتَرِفًا أَنَّ الخَلِيلَ لَمْ يَذْكُرْهُ[17].

والغَرِيبُ أَنَّ "ابْنَ عَبْدِ رَبِّهِ" رَفَضَ بَحْرَ المُتَدَارَكِ زَاعِمًا أَنَّهُ لَمْ يَرِدْ فِي أَشْعَارِ العَرَبِ وَكُلُ مَا لَمْ تَقُلْهُ العَرَبُ لَا يُلْتَفَتُ إِلَيْهِ، يَقُولُ:[18]

وَبَعْدَهَا خَامِسَةُ الدَّوَائِرِ	لِلْمُتَقَارِبِ الذّي فِي الآخِـــــرِ
يَنْفَكُّ مِنْهَا شَطْرُهُ وَشَطْرٌ	لَمْ يَأْتِ فِي الأَشْعَارِ مِنْهُ الذِّكْرُ
فَكُلُّ شَيْءٍ لَمْ تَقُلْ عَلَيْهِ	فَإِنَّنَا لَمْ نَلْتَفِـــــتْ إِلَـــــيْهِ

وَقَدْ عَلَّقَ الأُسْتَاذُ الدُكْتُورُ نَاصِرُ لُوحِيشِي عَلَى حُكْمِ ابْنِ عَبْدِ رَبِّهِ بِأَنَّهُ "مُطْلَقٌ يَتَسِمُ بِالعُمُومِ فَهَلْ يَعْنِي أَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ فِي أَشْعَارِ العَرَبِ بَيْتٌ مِنَ المُتَدَارِكِ أَوِ المُحْدَثِ؟ أَمْ هَلْ يُرِيدُ قَصَائِدَ طِوَالًا وَشُطُورًا عَلَى المُتَدَارِكِ؟ إِنَّ نَظْرَةً سَرِيعَةً فِي كُتُبِ العَرُوضِ وَفِي كُتُبِ التَرَاجِمِ

وَ الأَعْلَامِ تُثبِتُ أَنَ هُنَاكَ أَبْيَاتًا عَلَى المُتَدَارَكِ -وَإِنْ كَانَ بَعْضُهَا عَلَى الصِنَاعَةِ العَرُوضِيَّةِ وَلَا رَيْبَ-"[19].

وَمِنَ الأَبْيَاتِ التِّي اسْتَشْهَدَ بِهَا بَعْضُ العَرُوضِيِّينَ كَالجَوْهَرِيِّ[20] وَابْنِ رَشِيقٍ[21] بَيْتٌ لِلشَاعِرِ الجَاهِلِي عَمْرُو الجني[22] عَلَى المُتَدَارَكِ يَقُولُ فِيهِ:

أَشَجَاكَ تَشَتُّتُ شعْبِ الحي ... ي فَأَنْتَ لَهُ أَرِقٌ وَصَبٌ

فَعِلُنْ فَعِلُنْ فَعِلُنْ فَاعِلْ ... فَعِلُنْ فَعِلُنْ فَعِلُنْ فَعِلُنْ

وَمِمَنْ شَغَلَ الوَرَى بِأَرَائِهِ العَرُوضِيَّةِ الفَرِيدَةِ حَازِمٌ القَرْطَاجَنِيُّ الذِّي عَدَّ الأَوْزَانَ ثَلَاثَةَ أَصْنَافٍ: خُمَاسِيَّةٍ، وَسُبَاعِيَّةٍ، وَتُسَاعِيَّةٍ، وَعِنْدَهُ الخَبَبُ مِنَ الصِنْفِ الأَخِيرِ، وَشَطْرُهُ: مُتَفَاعِلَتُنْ مُتَفَاعِلَتُنْ وَهَذِهِ التَفْعِيلَةُ مُكَوَنَةٌ مِنْ سَبَبٍ ثَقِيلٍ وَوَتَدَيْنِ مَفْرُوقٌ فَمَجْمُوعٌ[23].

وَقَدْ نَاقَشَ الدُكْتُورُ نَاصِرْ لُوحِيشِي رَأْيَ حَازِمٍ فِي بَحْرِ الخَبَبِ مُسْتَدْرِكًا عَلَيْهِ خَطَأً عَدَّهُ سَهْوًا وَهَفْوَةً، وَهُوَ أَنَّ تَفْعِيلَةَ "مُتَفَاعِلَتُنْ" ثُمَانِيَّةٌ وَلَيْسَتْ تُسَاعِيَّةٌ وَبَيَّنَ أَنَّ القِسْمَةَ التِّي اهْتَدَى بِهَا حَازِمٌ إِلَى وَضْعِ عَرُوضِ الخَبَبِ قَدْ أَخَلَّتْ بِنِظَامِ العَرُوضِ المُتَّفَقِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْهُ، كَنِظَامِ الأَوْتَادِ وَجَرَيَانِ الزِحَافَاتِ وَالعِلَلِ عَلَى التَفْعِيلَاتِ، وَالحَاصِلُ أَنَّ الوَجْهَ الذِّي أَحْدَثَهُ حَازِمٌ فِي الخَبَبِ أَوْقَعَ فِي لَبْسٍ شَدِيدٍ[24]، ثُمَّ خَتَمَ الأُسْتَاذُ نَاصِرُ لُوحِيشِي مُنَاقَشَتَهُ لِرَأْيِ حَازِمٍ بِقَوْلِهِ: "وَمِمَّا يَجْدُرُ الإِيمَاءُ إِلَيْهِ أَنَّ حَازِمًا لَمْ يُشِرْ إِلَى الأَخْفَشِ وَلَا إِلَى غَيْرِهِ مَمَّنْ يُظَنُّ أَنَّهُ مُتَدَارِكُ المُتَدَارَكِ"[25]، وَنَجِدُ الإِسْنَوِيَّ أَيْضًا لَمْ يُشِرْ إِلَى مُسْتَدْرِكِ المُتَدَارَكِ، حَيْثُ قَالَ: " هَذَا هُوَ البَحْرُ الذِّي لَمْ يَذْكُرْهُ الخَلِيلُ وَتَدَارَكَهُ غَيْرُهُ"[26].

هَؤُلَاءِ العَرُوضِيّونَ الكِبَارُ: الجَوْهَرِيُّ، الزَمَخْشَرِيُّ، ابْنُ رَشِيقُ القَيْرَوَانِيُّ، ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ، حَازِمُ القَرْطَاجِيُّ، الإِسْنَوِيُّ، كُلُّهُمْ لَمْ يَخُوضُوا فِي قضية نِسْبَةِ بَحْرِ المُتَدَارَكِ.

2- العَرُوضِيّونَ المُقِرّونَ بِقَضِيّةِ الاسْتِدْرَاكِ:

لَوْ تَصَفَّحْنَا كُتُبَ العَرُوضِ القَدِيمَةَ وَالحَدِيثَةَ لَوَجَدْنَا أَنَّ كَثِيرًا مِنْهَا تُقِرُ بِتَدَارُكِ الأَخْفَشِ الأَوْسَطِ وَزْنَ المُتَدَارَكِ، بَلْ هَذَا هُوَ الشَائِعُ، لَكِنْ هَلْ هُوَ الصَوَابُ؟ وَانْ كَانَ كَذَلِكَ فَلِمَ لَمْ يَذْكُرِ الخَلِيلُ هَذَا البَحْرَ ؟.

مَرَّ مَعَنَا أَنَّ الخَلِيلَ هُوَ الذِّي وَضَعَ عِلْمَ العَرُوضِ بِإِجْمَاعِ العَرُوضِيّينَ مِنْ خِلَالِ كِتَابٍ لَمْ يَصِلْنَا كَمَا كَتَبَهُ وَأَمْلَاهُ، بَلِ الذِّي وَصَلَنَا هُوَ كُتُبُ العَرُوضِيّينَ مِنْ بَعْدِهِ بَعْدَ أَنْ نَضَجَ هَذَا

العِلْمُ عَلَى يَدِ الخَلِيلِ، إِذْ لَوْ وُجِدَ كِتَابُهُ فِي عِلْمِ العَرُوضِ لَعُدْنَا إِلَيْهِ وَحَسَمْنَا مُشْكِلَةَ المُتَدَارَكِ.

لَعَلَّ أَقْدَمَ كِتَابٍ فِي عِلْمِ العَرُوضِ وَصَلَنَا هُوَ (كِتَابُ العَرُوضِ)" لِلْأَخْفَشِ"، وَالغَرِيبُ أَنَّ الأَخْفَشَ نَفْسَهُ الذِّي نُسِبَ إِلَيْهِ هَذَا البَحْرُ لَمْ يَنْسِبْ إِلَى نَفْسِهِ تَدَارُكَ هَذَا الوَزْنِ، وَكَذَلِكَ تَلَامِيذُهُ[27].

يُعَدُّ كِتَابُ "الإِقْنَاعُ فِي العَرُوضِ" للصَاحِبِ بْنِ عَبَّادٍ (ت385ه) مِنْ أَقْدَمِ كُتُبِ العَرُوضِ التِّي وَرَدَ فِيهَا التَصْرِيحُ بِنِسْبَةِ المُتَدَارَكِ إِلَى الأَخْفَشِ، إِذْ وَرَدَ فِيهِ: "والشِّعْرُ كُلُّهُ أَرْبَعٌ وَثَلَاثُونَ عَرُوضًا وَثَلَاثَةٌ وَسِتُّونَ ضَرْبًا، وَخَمْسَةَ عَشَرَ بَحْرًا"[28].

وَقَدْ عَلَّقَ مُحَقِّقُ الكِتَابِ الشَيْخُ مُحَمَّدُ حَسَنُ آل يَاسِينَ فِي الهَامِشِ فَقَالَ :"جَاءَ فِي هَامِشِ الأَصْلِ بَعْدَ هَذِهِ الكَلِمَةِ[أي مباشرة بعد قول الصاحب بن عباد: خمسة عشر بحرا] مَا نَصُّهُ: "عَلَى رَأْيِ الخَلِيلِ وَاضِعِ هذا العِلْمِ وَسِتَّةَ عَشَرَ بَحْرًا عَلَى رَأْيِ الأَخْفَشِ النَّحْوِيّ..."[29]، والحَاصِلُ أَنَّ إِحْدَى نُسَخِ كِتَابِ "الإِقْنَاعِ فِي العَرُوضِ" وَرَدَ فِيهَا التَصْرِيحُ بِأَنَّ عَدَدَ البُحُورِ عِنْدَ الأَخْفَشِ سِتَّةَ عَشَرَ بَحْرًا، وَلَعَلَّ البَحْرَ الذِّي زَادَهُ هُوَ "المُتَدَارَكُ"، لَكِنْ لِمَ لَمْ يَرِدْ هذا التَّصْرِيحُ فِي كُلِّ نُسَخِ "الإِقْنَاعِ"؟ والذِّي وَرَدَ هُوَ أَنَّ عَدَدَ البُحُورِ التِّي أَنْشَأَهَا الخَلِيلُ خَمْسَةَ عَشَرَا بَحْرًا.

وَنَجِدُ الفَيُّومِيَّ المَقَّرِيَّ (ت 770 ه) شَارِحَ عَرُوضِ ابْنِ الحَاجِبِ مُصَرِحًا بِأَنَّ الأَخْفَشَ هُوَ الذِّي اسْتَخْرَجَ المُتَدَارَكَ، قَالَ فِي بَابِ المُتَدَارَكِ " هَذَا البَحْرُ اسْتَخْرَجَهُ الأَخْفَشُ مِنْ بَحْرِ المُتَقَارِبِ"[30]وَرُغْمَ هذا التَّصْرِيحِ الوَاضِحِ إلا أَنَّهُ شَدَّ انْتِبَاهِي اسْتِعْمَالُ الفَيُّومِي عِبَارَةَ " استَخْرَجَهُ" بَدَلَ "اسْتَدْرَكَهُ"،وَلَعَلَّ الفَيُّومِيَّ لَا يَرَى أَنَّ الخَلِيلَ قَدْ فَاتَهُ العِلْمُ بِهَذَا البَحْرِ لِذَلِكَ قَالَ : "اخْتَلَفَ فِيهِ عَنِ الخَلِيلِ، فَقَالَ الأَكْثَرُ : نَصَّ عَلَى طَرْحِهِ، وَلَيْسَ عِنْدَهُ شِعْرٌ، وَهُوَ مَا ذَكَرَهُ المُصَنِّفُ"[31] وَيَقْصِدُ بِالمُصَنِّفِ "ابْنَ الحَاجِب" (ت 646ه) .

وَ كَانَ الدَمَامِنِيُّ (ت 827ه) صَرِيحًا فِي نِسْبَةِ المُتَدَارَكِ إِلَى الأَخْفَشِ حَيْثُ تَحَدَّثَ عَنِ البُحُورِ فَقَالَ : " وَكَوْنُهَا خَمْسَةَ عَشَرَ هُوَ مَذْهَبُ الخَلِيلِ، وَزَادَ الأَخْفَشُ بَحْرًا أَخَرَ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهُ مُسْتَعْمَلٌ وَتَبِعَهُ عَلَى ذَلِكَ جَمَاعَةٌ وَهُوَ بَحْرُ المُتَدَارَكِ... وَالخَلِيلُ يَرَى أَنَّهُ مِنَ المُهْمَلَاتِ"[32] فَالدَّمَامِنِيُّ لا يرى أنَّ الخَلِيلَ كَانَ جَاهِلًا بِوُجُودِ هذا البَحْرِ المُنْفَكِّ عَنِ المُتَقَارِبِ.

وقَدْ ذَهَبَ الدَّمَنْهورِيُّ مَذْهَبَ الدَّمَامِنِيّ حِينَ صَرَّحَ بِنِسْبَةِ المُتَدَارَكِ إِلَى الأَخْفَشِ فِي حَدِيثِهِ عَنِ البُحُورِ: " وَهِيَ خَمْسَةَ عَشَرَ عَلَى رَأْيِ الخَلِيلِ وَسِتَّةَ عَشَرَ عَلى رَأْيِ الأَخْفَشِ"[33] .

وَقَدْ عَدَدْنَا -وَنَحْنُ نَدْرُسُ فِي الجَامِعَةِ- قَضِيَةَ اسْتِدْرَاكِ الأَخْفَشِ بَحْرَ المُتَدَارَكِ مِنَ المُسَلَّمَاتِ فِي عِلْمِ العَرُوضِ لِكَثْرَةِ تَدَاوُلِهَا فِي كُتُبِ العَرُوضِ الحَدِيثَةِ خَاصَةً التي يَكُونُ هَدَفُها تَسْهِيلِيًا تَعْلِيمِيًا، ولاَ بَأْسَ أَنْ نُلمِحَ إلى بَعْضِهَا عَلَى سَبِيلِ التَمْثِيلِ.
يَقُولُ الدُّكْتُورُ عَبْدُ اللهِ دَرْوِيش: " المُتَدَارَكُ، وَيُنْطَقُ بِفَتْحِ الرَّاءِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الأَخْفَشَ تَدَارَكَهُ عَلَى الخَلِيلِ"[34] لَكِنْ ثَمَّةَ ثُلَّةٌ مِنَ المُشْتَغِلِينَ بِالدِّرَاسَةِ العَرُوضِيَّةِ اسْتَوْقَفَتْهُمْ قَضِيَّةَ اسْتِدْرَاكِ المُتَدَارَكِ، فَوَقَفُوا مُتَأَمِلِينَ غَيْرَ رَاضِيينَ بِمُجَرَّدِ النَّقْلِ وَالتَّقْلِيدِ، وَخَلصُوا مُتَّفِقِينَ إِلَى أَنَّ اسْتِدْرَاكَ الأَخْفَشِ المُتَدَارَكَ خَطَأٌ دَرَجَ عَلَيْهِ بَعْضُ المُتَقَدِمِينَ وَكَثِيْرٌ مِنَ المُتَأَخِرِينَ، وَلِكُلٍّ مُسَوِّغَاتُهُ وَتَعْلِيلاتُهُ.

3- الرَّافِضُونَ قَضِيَّةَ اسْتِدْرَاكِ الأَخْفَشِ عَلَى الخَلِيلِ بَحْرَ المُتَدَارَكِ:

مِنَ الذِينَ أَبْطَلُوا قَضِيَةَ اسْتِدْرَاكِ الأَخْفَشِ الأَوْسَطِ بَحْرَ المُتَدَارَكِ شَارِحُ تُحْفَةِ الخَلِيْلِ عَبْدُ الحَمِيدِ الرَاضِي، والحُجَّةُ التي تَوَكَّأَ عَلَيْهَا هِيَ طَرِيقَةُ الفَكِّ، فَالدَّائِرَةُ العَرُوضِيَةُ -في نَظَرِه- لَا مَعْنَى لَهَا إِذَا ضَمَّتْ وَزْنًا وَاحِدًا؛ "لأن الدَّائِرَةَ العَرُوضِيَةَ مَبْنِيَّةٌ أَنْ يُسْتَخْرَجَ عِنْدَ كُلِّ وَتِدٍ أَوْ سَبَبٍ فِيهَا بَحْرٌ مِنْ بُحُورِهَا وَقَدْ يَحْمِلُنَا هَذَا عَلَى إِعَادَةِ النَّظَرِ فِي مَوْضُوعِ اسْتِدْرَاكِ الأَخْفَشِ عَلَى الخَلِيلِ بَحْرَ المُتَدَارَكِ فِي دَائِرَةِ المُتَّفِقِ، فَهَذِهِ الدَّائِرَةُ تَضُمُّ المُتَقَارِبَ، وَوَزْنُهُ: فَعُولُنْ فَعُولُنْ فَعُولُنْ فَعُولُنْ....

فَإِذَا أَجْرَيْنَا قَاعِدَةَ "الفَكِّ" فَأَهْمَلْنَا الوَتِدَ "فَعُوْ" مِنْ أَوَّلِهِ حَصَلْنَا عَلَى المُتَدَارَكِ:
فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ...

وَإِجْرَاءُ الفَكِّ فِي الدَّائِرَةْ مِنْ صَمِيمِ بِنَائِهَا بَلْ لا مَعْنَى لِلدَّائِرَةِ غَيْرُهُ، وَهَذَا وَحْدَهُ يَفْرِضُ وُجُودَ المُتَدَارَكِ فَرْضًا، فَلَا مَعْنَى لِلْقَوْلِ إِنَّ الْخَلِيلَ قَدْ أَغْفَلَهُ وَإِنَّ الأَخْفَشَ اسْتَدْرَكَهُ عَلَيْهِ، وَلَو افْتَرَضْنَا أَنَّ الخَلِيلَ لَمْ يَجِدْ لِهَذَا البَحْرِ شَاهِدًا فِي الشِّعْرِ العَرَبِي فَلَا أَقَلَّ مِنْ أَنْ يَذْكُرَهُ فِي عِدَادِ البُحُورِ المُهْمَلَةِ كَمَا ذَكَرَ المُمْتَدَ فِي الدَّائِرَةِ المُخْتَلِفَةِ وَالمُتَوَفِرَ فِي المُؤْتَلِفَةِ وَالمُطَّرِدَ فِي المُشْتَبِهَةِ... وَبِهَذَا يَبِيْنُ زَيْفُ تِلْكَ الأُسْطُورَةِ القَائِلَةِ بِإِغْفَالِ الخَلِيلِ هَذَا الوَزْنَ وَ إِنَّ الأَخْفَشَ قَد اسْتَدْرَكَهُ عَلَيْهِ"[35]

وَالحُجَّةُ نَفْسُهَا (طَرِيقَةُ الفَكِّ) جَعَلَهَا مَهْدي المَخْزُومِي مُسَوِّغًا يُدَافِعُ بِه عَنْ الخَلِيلِ بِقُوَّةٍ حِينَ رَأَى أَنَّ المُتَدَارَكَ نُسِبَ إِلَى غَيْرِه مُسْتَغْرِبًا كَيْفَ خَفِيَ هَذَا عَنِ الدَّارِسِينَ يَقُولُ: "إِذَا

افْتَرَضْنَا أَنْ يَكُونَ (الخَبَبُ) مِمَّا لَا يَصِحُّ عِنْدَ الخَلِيلِ حَقًّا... فَإِنَّ عَدَمَ وُقُوفِهِ عَلَيْهِ بِطَرِيْقَةِ الفَكِّ مِمَّا لَا يَجُوزُ مِثْلُهُ عَلَى الدَّارِسِينَ، وَإِذَا كَانَ الخَلِيْلُ قَدْ وَقَفَ عَلَيْهِ، وَهُوَ مِمَّا لَا شَكَّ فِيْهِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَدْ وَضَعَ لَهُ لَقَبًا كَمَا وَضَعَ أَلْقَابًا لِلْبُحُورِ المُهْمَلَةِ الأُخْرَى: كَالمُسْتَطِيْلِ وَالمُمْتَدِّ وَالمُتَوَفِّرِ وَغَيْرِهَا، وَأَكْبَرُ الظَّنِّ أَنَّهُ سَمَّاهُ بِالخَبَبِ"[36].

إِنَّ طَرِيْقَةَ الفَكِّ التي تَوَكَّأَ عَلَيْهَا المَخْزُومِيُّ وَعَبْدُ الحَمِيدِ الراضِي في دَحْضِ فِكْرَةِ اسْتِدْرَاكِ الأَخْفَشِ المُتَدَارَكَ _في نَظَرِي_ لَقَوِيَّةٌ جِدًّا؛ إِذْ إِنَّ نَظَرِيَّةَ الخَلِيلِ في العَرُوضِ وَاللُّغَةِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى فِكْرَةِ المُسْتَعْمَلِ وَالمُهْمَلِ انْطِلَاقًا مِنَ التَّقْلِيباتِ في حَصْرِ مُفْرَدَاتِ اللُّغَةِ (مُعْجَم العَيْن) وَالفَكِّ في حَصْرِ بُحُورِ الشِّعْرِ، وَهَذَا مَا فَعَلَهُ الخَلِيْلُ في كُلِّ الدَّوَائِرِ العَرُوضِيَّةِ، فَكَيْفَ يُعْقَلُ أَنَّهُ جَهِلَ بَحْرَ الخَبَبِ (المتدارك) الذي يَتَوَلَّدُ مُبَاشَرَةً بَعْدَ المُتَقَارِبِ حَتَى يَكْتَشِفَهُ غَيْرُهُ مِنْ بَعْدِهِ؟.
وَلَعَلَّ هذا السَّبَبَ الذي جَعَلَ عَبْدَ الرِّضا عَلِيًّا يَتَّبِعُ المَخْزُومِيَّ في إِثْبَاتِ أَنَّ الخَلِيلَ اهْتَدَى إلى مَعْرِفَةِ جَمِيعِ البُحُورِ "فَهِيَ سِتَّةَ عَشَرَ بَحْرًا، وَمَنْ يَتَّبِعُ طَرِيقَةَ (الفَكِّ) التي اصْطَنَعَهَا الخَلِيلُ يُوقِنُ أَنَّ الخَلِيلَ ذَكَرَهَا كُلَّهَا، لِأَنَّهَا تَسْتَقِيمُ جَمِيعُهَا بِالفَكِّ وَإِنْ لَمْ يَنُصَّ عَلَيْهَا"[37]، ثُمَّ يَذْكُرُ بَعْدَهَا أَنَّ اسْتِدْرَاكَ الأَخْفَشِ المُتَدَارَكَ وَهْمٌ وَقَعَ فِيهِ العَرُوضِيُّونَ مُبَيِّنًا أَنَّ في الفَكِّ رَدٌّ يَدْحَضُ هذا الزَعْمَ[38].

إِنَّ طَرِيقَةَ الفَكِّ حُجَّةٌ يَطْمَئِنُ لَهَا القَلْبُ وَدَلِيلٌ مَنْطِقِيٌّ في أَنَّ الخَلِيلَ لَمْ يَجْهَلِ المُتَدَارَكَ لَكِنْ مَا ادَّعَاهُ المَخْزُومِيُّ وَعَبْدُ الحَمِيدِ الرَاضِي مِنْ أَنَّ الخَلِيلَ سَمَّى البُحُورَ المُهْمَلَةَ فِيهِ نَظَرٌ إِذْ إِنَّهُ يَحْتَاجُ إلى دَلِيلٍ يَعْضُدُهُ مِنْ مَصَادِرِ العَرُوضِ وَإِلَّا كَانَ مُجَرَدَ ادِّعَاءٍ وَزَعْمٍ يَفْتَقِدُ إلى الدِّقَةِ العِلْمِيَّةِ، لِذَلِكَ رَفَضَهُ الدُكْتُورُ نَاصِرُ لُوحِيشِي فَقَالَ: "وَلَكِنَّ الرَّاجِحَ عِنْدَنَا أَنَّ الخَلِيلَ لَمْ يُسَمِّ البُحُورَ المُهْمَلَةَ وَلَمْ يَضَعْ لَهَا أَلْقَابًا، بَلْ لَمْ تَرِدْ إِشَارَةٌ إِلَى ذَلِكَ في مَظَانِّ العَرُوضِ وَمَصَادِرِهِ _فِيمَا نَعْلَمُ_ لَا في المُوَشَّحِ وَلَا في العُمْدَةِ ... وأَغْلَبُ الظَّنِ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا كَانَ في عَصْرٍ بَعِيدٍ عَنْ عَصْرِ الخَلِيلِ(العَصْرُ العَبَّاسِيُّ) حِينَ حَاوَلَ بَعْضُ النَّظَّامِيينَ وَالشُعَرَاءُ النَّظْمَ عَلَى تِلْكَ البُحُورِ المُهْمَلَةِ، وَنَحْسَبُ أَنَّ الخَلِيلَ كَانَ يَجْتَزِئُ بِقَوْلِهِ هَذَا بَحْرٌ مُهْمَلٌ"[39].
وَيَرَى مُحَمَّدُ عَبْدُ الدَايِمِ أَنَّ الأَخْفَشَ لَمْ يَسْتَدْرِكْ عَلَى الخَلِيلِ بَحْرَ المُتَدَارَكِ مُقَدِّمًا أَدِلَّةً بَدَتْ لَهُ عَقْلِيَّةً:
- "لَا يُعْقَلُ أَنْ تُخْرِجَ دَوَائِرُ الخَلِيلِ كُلَّ هذَا الكَمِّ مِنَ البُحُورِ مُسْتَعْمَلَةً ومُهْمَلَةً، ثُمَ يَعْجَزُ عَنْ إِخْرَاجِ المُتَدَارَكِ، بَلْ إِنَّ إِخْرَاجَ المُتَدَارَكِ أَسْهَلُ مِنْ إِخْرَاجِ غَيْرِهِ مِنَ البُحُورِ، حَيْثُ لاَ لَبْسَ فِيهَا وَلَا غُمُوضَ... فَلَوْ بَدَأْنَا بِالوَتَدِ المَجْمُوعِ أَخْرَجْنَا المُتَقَارِبَ، وَلَوْ بَدَأْنَا بِالسَّبَبِ الخَفِيفِ بَعْدَهُ أَخْرَجْنَا المُتَدَارَكَ.

فَأَيُّ مُلِمٍّ بِانْفِكَاكِ البُحُورِ مِنَ الدَّوَائِرِ يُمْكِنُهُ إِخْرَاجُ المُتَدَارَكِ، فَهَلْ يَعْجز الخَلِيلُ عَنْ إِخْرَاجِهِ وَيُخْرِجُهُ الأَخْفَشُ؟ ..لَا أَظُنُّ..

- لاَ يُعْقَلُ أَنْ يُخْرِجَ الأَخْفَشُ المُتَدَارَكَ وَلَا يَنْسِبُ هَذَا الشَّرَفَ إِلَى نَفْسِهِ، فَهَذَا كِتَابُهُ العَرُوضُ خَالٍ تمَامًا عَنِ التَّلْمِيحِ مُجَرَّدِ التَّلمِيحِ، مِمَّا يُفْهَمُ مِنْهُ اسْتِدْرَاكُهُ لَهُ...

- لَا يُعْقَلُ أَنْ يَسْتَدْرِكَ الأَخْفَشُ المُتَدَارِكَ وَلَا يَتَحَدَّثُ تَلَامِيذُهُ بِهَذَا الاِسْتِدْرَاكِ...

- لاَ يُعْقَلُ أَنْ يَعْلَمَ ابْنُ جِنِّيّ، وَحَمَّادٌ الجَوْهَرِيُّ وَابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ، وَالدَّمَنْهُورِيُّ، وَصَاحِبُ تُحْفَةِ الخَلِيلِ، وَالتَبْرِيزِيُّ أَنَّ الأَخْفَشَ اسْتَدْرَكَ المُتَدَارَكَ ثُمَّ يَعْتِمُونَ القَضِيَّةَ، وَيَتَجَاهَلُونَ الأَمْرَ على الرُغْمِ مِنْ نِسْبَةِ كَثِيرٍ مِنَ الآرَاءِ إِلى الأَخفَشِ في موَاَضِعَ شَتَّى مِنْ مُؤَلِفَاتِهِم العَرُوضِيَّةَ"[40]، ثُمَّ ثَنَى أَحْمَدُ عَبْدُ الدَايِمِ[41] بِإِيرَادِ حُجَجٍ نَقْلِيَّةٍ تُبَرِّرُ الحُجَجَ العَقْلِيَّةَ _فِي نَظَرِهِ- ذَاكِرًا أَبْيَاتًا مَنسُوبَةً إِلَى الخَلِيلِ عَلَى بَحْرِ المُتَدَارَكِ وَرَأَى أَنَّهَا حُجَّةٌ عَلَى أَنَّ الخَلِيلَ كَانَ عَالِمًا بِهَذَا البَحْرِ وَحَاوَلَ أَنْ يُثْبِتَ صِحَّةَ نِسْبَةِ هَذِهِ الأَبْيَاتِ إِلَى الخَلِيلِ، ثُمَّ نَقَلَ عِبَارَةً عَدَّهَا فَاصِلَةً وَاضِحَةً لابْنِ القَطَّاعِ (ت515هـ) قال فِيهَا: "وَلَمْ يُجِزْهُ الخَلِيلُ وَدَفَعَهُ مَرَّةً وَاحِدَةً"[42] وَعَلَّقَ عَلَى قَوْلِ ابْنِ القَطَّاعِ بِقَوْلِهِ: "لَمْ يُجِزْهِ الخَلِيلُ، وَالإِجَازَةُ وَعَدَمُ الإِجَازَةِ لَا تَكُونُ مِنْهُ إِلَّا فِي أَمْرٍ كَثُرَ الجَدَلُ فِيهِ، وَقَضَى الخَلِيلُ فِيهِ بِعَدَمِ إِجَازَتِهِ وَ"دَفَعَهُ مَرَّةً وَاحِدَةً" رَفَضَهُ كُلَّهُ، وَالرَّفْضُ لَا يَكُونُ لِشَيْءٍ مَجْهُولٍ، بَلْ لِشَيْءٍ مَعْلُومٍ مَعْرُوفٍ وَالأَوْقَعُ عِنْدِي: أَنَّ الخَلِيلَ اسْتَهْجَنَ النَّظْمَ عَلَى هَذَا البِنَاءِ... بَلْ هوَ بَحْرٌ سُوقِيٌّ"[43].

لَا شَكَّ أَنَّ هَذِهِ الحُجَجَ المُقَدَمَةَ مِنْ قِبَلِ مُحَمَّد عَبْدِ الدَّايِمِ مُقْنِعَةٌ لَكِنَّ فِي كَلَامِهِ بَعْضَ التَّنَاقُضِ كَمَا بَيَّنَ ذَلِكَ الدُكْتُورُ نَاصِر لُوحِيشِي، إِذْ يَقُولُ: "وَيُسْتَبِينُ لَنَا _وَنَحْنُ نَنظُرُ فِي هَذِهِ المُسَوِّغَاتِ وَالأَدِلَّةِ وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ حَقِيقَةِ بَعْضِهَا إلا أَنَّ فِيهَا بَعْضًا مِنَ الانْتِقَاضِ، وَبَعْضًا مِنَ التَّعَسُّفِ، إِذْ كَيْفَ يَسْتَهْجِنُ الخَلِيلُ النَّظْمَ على هَذَا الوَزْنِ ثمّ يَنْظِمُ هُوَ عَلَيْهِ؟ وَكَيْفَ يَكُونُ هَذَا البَحْرُ سُوقِيًّا لَا يُحْوِج إِلى مَوْهِبَةٍ وَالخَلِيلُ يَنْظِمُ عَلَيْهِ، أَضِفْ إِلَى ذَلِكَ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الشِّعْرِ الحَدِيثِ وَالمُعَاصِرِ عَلَى هَذَا الوَزنِ"[44].

وَأَمَّا "مُحَمَّدٌ أَحْمَدُ وريث" فَإِنَّهُ يَرَى أَنَّ الخَلِيلَ لَمْ يَخْفَ عَنْهُ أَمْرُ "فَاعِلُنْ" ولَمْ يَصْعُبْ علَيْهِ ونِسْبَةُ ذَلِكَ إِلى الأَخْفَشِ فِيهِ نَظَرٌ، وَاسْتَدَلَّ بِوُجُودِ هَذِهِ التَّفْعِيلَةِ فِي المَدِيدِ وَ البَسِيطِ، وَعَدَّ مَا نُسِبَ إِلى الأَخْفَشِ إِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاكٌ مُتَوَلِّدٌ مِنْ دَاخِلِ النِّظَامِ العَرُوضِيّ الخَلِيلِي نَفْسِهِ فَالأَخْفَشُ لَمْ يُسَمِّ هَذَا النِّظَامَ وَلَمْ يُعَدِّلْهُ وَلَمْ يَنْقُضْ أُصُولَهُ[45].

ومَهْمَا يَكُنْ فَإِنَّ بَعْضَ الدَّارِسِينَ أَجْرَى إِحْصَاءً عَلَى دَوَاوِينِ مُعْجَمِ البَابِطِينَ وَخَلُصَ إِلَى أَنَّ المُتَدَارَكَ يَتَبَوَّأُ المَرْتَبَةَ الثَانِيَةَ بَعْدَ الكَامِلِ في الشِّعْرِ العَرَبِيِّ المُعَاصِرِ[46].

الخَاتِمَةُ:

مِمَّا سَبَقَ ذِكْرُهُ حَوْلَ قَضِيَّةِ الاسْتِدْرَاكِ يَظْهَرُ لَنَا مَا يَأْتِي:

1_ إِنَّ طَرِيقَةَ الفَكِّ فِي تَوْلِيدِ البُحُورِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الخَلِيلَ لَمْ يَفُتْهُ العِلْمُ بِهَذَا البَحْرِ (المتدارك).

2_ عَدَّ الخَلِيلُ المُتَدَارَكَ مُهْمَلًا لِسَبَب رَئِيسَيْنِ هُما:

_ نُدْرَةُ هَذَا البَحْرِ فِي الشِّعْرِ العَرَبِيّ.

_ مُخَالَفَتُهُ لِأُصُولِ العَرُوضِ الخَلِيلِي (دُخُولُ عِلَّتَي القَطْعِ وَالتَشْعِيثِ عَلَى الحَشْوِ).

3_ لَمْ يَنْسِبِ الأَخْفَشُ إِلَى نَفْسِهِ اسْتِدْرَاكَ المُتَدَارَكِ، بَلْ نَسَبَهُ إِلَيْهِ غَيْرُهُ فِي زَمَنٍ مُتَأَخِرٍ بَعْدَمَا شَاعَ الغِنَاءُ وَذَاعَ اسْتِعْمَالُ هَذَا الوَزْنِ.

4_ استِدْرَاكُ الأَخْفَشِ المُتَدَارَكَ خَطَأٌ مَشْهُورٌ تَنَاقَلَه العرُوضِيُّونَ.

5_ اتِّفَاقُ أَغْلَبِ العَرُوضِيِّينَ الأَوَائِلِ عَلَى أَنَّ البُحُورَ الخَلِيلِيَّةَ خَمْسَةَ عَشَرَ بَحْرًا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الخَلِيلَ أَهْمَلَ المُتَدَارَكَ، وَلَا يَعْني أَنَّهُ جَهَلَ بِهِ وَفَاتَهُ إِدْرَاكُهُ حَتَّى اسْتَدْرَكَهُ غَيْرُهُ.

6_ اسْتِعْمَالُ المُتَدَارَكِ فِي العَصْرِ الحَدِيثِ خَاصَةً الشِّعْرَ الحُرَّ شَائِعٌ وَإِنْ كَانَ مُخَالِفًا لِبَعْضِ أُصُولِ العَرُوضِ.

7_ لَعَلَّ الكَلِمَةَ الجَامِعَةَ الأَقْرَبَ إِلَى الصَّوَابِ أَنْ نَقُولَ: يَنْفَكُ عَنِ المُتَقَارِبِ المُتَدَارَكُ، وَعَدَّهُ الخَلِيلُ مُهْمَلًا لِنُدْرَةِ شَوَاهِدِهِ وَمُخَالَفَتِهِ لِلْأُصُولِ، لَكِنَّهُ ذَاعَ فِي زَمَنٍ مُتَأَخِرٍ فَنَسَبَهُ بَعْضُ المَغْمُورِينَ إِلَى الأَخْفَشِ ذِي النَّبَاهَةِ وَالعِلْمِ وَالشُّهْرَةِ.

هوامش البحث

[1] أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقري، شرح عروض ابن الحاجب،تحقيق:محمود محمد العامودي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2013، ط1، ص157.

[2] نور الدين السالمي العماني، المنهل الصافي على فاتح العروض والقوافي، وزارة التراث القومي والثقافي، سلطنة عمان، ط2، 1993، ص152.

[3]نور الدين السالمي العماني، المنهل الصافي على فاتح العروض والقوافي، ص152.

[4] المرجع نفسه،ص152.

[5] المرجع نفسه، ص152.

[6] يُنظر: الزمخشري، القسطاس في علم العروض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2015، ص60.

[7] إسماعيل بن حماد الجوهري، عروض الورقة، ت: د. محمد سعدي جوكنلي، ارضروم، 1994،ص47.

[8] المرجع نفسه، ص47-48.

[9] المرجع نفسه، ص47.

[10] يُنظر : صفاء خلوصي، فن التقطيع الشعري والقافية، منشورات مكتبة المثنى، بغداد، ط5، 1977، ص197.

[11] إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو المصرية، ط2، 1952،ص101.

[12] يُنظر: حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ت: محمد بن الحبيب بن الخوجة،ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1981، ص241-243

[13] ناصر لوحيشي، أوزان الشعر العربي بين المعيار النظري والواقع الشعري، دار الأمير خالد، الجزائر (وزارة الثقافة)، 2013،ص143، ويُنظر أيضا: محمود محمد شاكر، نمط صعب ونمط مخيف، ط1، دار المدني مطبعة المدني، القاهرة، مصر، 1416هـ-1996م، ص89.

[14] الجوهري، عروض الورقة، ص3.

[15] المرجع نفسه، ص47.

[16] الزمخشري، القسطاس في علم العروض، ص60.

[17] يُنظر: ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ج1، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 2001، ص121.

[18] ابن عبد ربه، العقد الفريد، شرحه وضبطه أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الأبياري،ج5، ط3، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1983،ص441.

[19] ناصر لوحيشي، أوزان الشعر العربي بين المعيار النظري والواقع الشعري، ص153-154.

[20] يُنظر: عروض الورقة، ص68.

[21] يُنظر: العمدة، ص123.

[22] يُنظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، ط5، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1980، ج5، ص80.

[23] يُنظر: حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص241-243.

[24] يُنظر: ناصر لوحيشي، الشعر العربي بين المعيار النظري والواقع الشعري، ص156-157-158.

[25] المرجع نفسه، ص159.

[26] جمال الدين عبد الرحيم الإسنوي الشافعي، نهاية الراغب في شرح عروض ابن الحاجب، ت: د. شعبان صلاح، ط1، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1410هـ-1989م، ص334.

[27] يُنظر: الأخفش، كتاب العروض، ت: د.أحمد عبد الدايم، مكتبة الزهراء، القاهرة، مصر، 1989، ص10.

[28] الصاحب بن عباد، الإقناع في العروض وتخريج القوافي، ت: محمد حسن آل ياسين، منشورات المكتبة العلمية، شارع المتنبي، بغداد، ص4.

[29] المرجع نفسه، ص4.

[30] أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقري، شرح عروض ابن الحاجب، ت: د. محمود محمد العامودي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص157.

[31] المرجع نفسه، ص157.

[32] بدر الدين محمد بن أبي بكر الدماميني، العيون الغامزة على خبايا‌الرامزة، ت: الحساني حسن عبد الله، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 1415هـ-1994م، ص22.

[33] محمد الدمنهوري، الحاشية الكبرى على متن الكافي في علمي العروض والقوافي، ط1، مطبعة التقدم العلمية، مصر، 1332هـ، ص26.

[34] عبد الله دويش، دراسات في العروض والقافية، ط3، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، العزيزية، 1407هـ-1987م، ص86 ، ويُنظر: محمد حماسية عبد اللطيف، البناء العروضي للقصيدة العربية، ط1، دار الشروق، القاهرة، مصر،= 1420 هـ-1999م، ص95 ، ويُنظر أيضا: نور الدين السالمي العماني، المنهل الصافي على فاتح العروض والقوافي، ص152، ويُنظر أيضا: عبد العزيز عتيق، علم العروض والقافية، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1987م، ص127.

[35] عبد الحميد الراضي، شرح تحفة الخليل في العروض والقافية، ط2، مؤسسة الرسالة، بغداد، 1395هـ-1975م، ص17-18.

[36] مهدي المخزومي، الفراهيدي عبقري من البصرة، ط2، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1989، ص106.

[37] عبد الرضا علي، موسيقى الشعر العربي قديمه وحديثه، دراسة وتطبيق في شعر الشطرين والشعر الحر، ط1، دار الشروق، 1997م، ص16.

[38] المصدر نفسه، ص17.

[39] ناصر لوحيشي، أوزان الشعر العربي بين المعيار النظري والواقع الشعري، ص165-166.

[40] أحمد محمد عبد الدايم عبد الله، قضايا وبحوث في النحو والصرف والعروض، ط1، 1423هـ-2002م، ص192.

[41] يُنظر، المرجع نفسه، ص192-193.

[42] ابن القطاع، كتاب البارع في علم العروض والقوافي، ت: د. أحمد محمد عبد الدايم، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، 1405هـ-1985م، ص208.

[43] أحمد محمد عبد الدايم، المرجع نفسه، ص194.

[44] ناصر لوحيشي، أوزان الشعر العربي بين المعيار النظري والواقع الشعري، ص169-170.

[45] يُنظر: محمد أحمد وريث، في إيقاع الشعر العربي، ط1، الدار الجماهرية للنشر والتوزيع، لبيا،1430هـ-2000م،ص187-188.

[46] يُنظر: ناصر لوحيشي، أوزان الشعر العربي بين المعيار النظري والواقع الشعري، ص 170.